اقتران همزة الاستفهام بأداة النفي(لم) مع حرف لعطف (الواو) في القرآن الكريم (دراسة بلاغية)

الدكتور عمر علي غالب صالح

Omer.a.ghaleb@aliraqia.edu.iq

الجامعة العراقية / كلية الإعلام / الصحافة الإذاعية والتلفزيونية

المستخلص:

تناولت في هذا البحث تركيباً من تراكيب اللغة العربية في القرآن الكريم ، وهو اقتران همزة الاستفهام بأداة النفي بـ(لم) المسبوقة بحرف العطف (الواو) ، وهي ظاهرة اختصت بها الهمزة (أم الباب) دون سائر أخواتها من أدوات الاستفهام الأخرى ، ويهدف البحث الى كشف القضايا الجمالية لاقتران الاستفهام (الهمزة) بالنفي من حيث الأغراض البلاغية التي تخرج من الحقيقة إلى المجاز، والتعرف على ما ينطوي تحتها من دلالات خفية ومعان مختلفة، وشرح المعاني البلاغية لهمزات الاستهام و يخرجها من اكمامها الاصطلاحية فتبين معنى التقرير والإنكار والتعجب والتقريع والسخرية والاستهزاء و هكذا بقية المعاني واقتضت طبيعة البحث اعتماد المنهج القائم على التحليل والبلاغة.

المقدمة

الحمد لله على ما أنعم ، والشكر له على ما ألهم ، والثناء بما قدَّم ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلَّم . وبعد :

فإن القرآن هو ينبوع الحياة لما فيه من أحكام ومعاملات وعبر، وقد تنوعت أساليبه في طرحه لكثير من الموضوعات ، وقد كان أساس هذا التعبير هو أسرار اللغة العربية، فكثرت فيه ما وجد في كلام العرب وأساليبهم، من تشبيه واستعارات وأمثال تشد ذهن القارئ وتبهره ، بنظمه الجميل وأسلوبه العجيب، الذي أعجز البلاغيين أن يأتوا بمثله، فقد تضمن البحث مبحثين يسبقه ملخص ومقدمة ، تحدثت في المطلب الأول عن الاقتران لغة واصطلاحا ، ثم تكلمت في المطلب الثاني عن اقتران همزة الاستفهام بأداة النفي (لم) مع اقترانها بحرف العطف، وبينت الاساليب البلاغية لهذه التراكيب ، ثم اعقبته بالخاتمة ، أما المصادر والمراجع والتي كانت فهي كتب التفسير ،وعلوم القرآن ، والمعاجم اللغوية ، أساساً لهذه الدراسة وأخيرا أسال الله تعالى أن يكون هذا البحث خالصا لوجهه الكريم وأن ينال استحسان القارئ الكريم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المطلب الأول : حَدُ الاقتران لغة واصطلاحاً:

الاقتران لغةً:

ذكر ابن فارس أنَّ الاقتران في اللغة من الفعل (قرن) ، والقِرآن المصاحبة، كالمقارنة، قارن الشيء مقارنة و قراناً اقتران به مصاحبه ، وقارنته قراناً صاحبته ، والاقتران يقتضي شيئين اتحد أحدهما بالآخر، ومصدر قولك قرنتُ الشيء أقرنه قرناً، إذا شددته الي شيء وقرنته إليه ، والقرآن : الحبل الذي قرن به وجمعه قُرن ، والقرين صاحبك الذي قارنك ، امرأة الرجل : قرينته ، والقرن : قرن الثور وغيره ، والجمع قرون ، والقرن من الناس : الامة منهم ، والجمع قرون أيضا [١] ، وأشار الرازي قولنا هم قرانه ، وهو قرينه في العلم ، وقرن بينهما يقرن ويقرن [٢]

الاقتران اصطلاحاً:

قال الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢) :((الاقتران كالازدواج في كونه اجتماع شيئين أو أشياء في معنى من المعاني))[٣]

وقال ابن النجار الحنبلي :((الاقتران في علم النفس هو : ترابط بين شيئين بحيث يستدعي ظهور أحدهما في لعقل ظهور الآخر))[٤]

المطلب الثاني : قتران همزة الاستفهام بالنفي مع حرف العطف (أولم)

ورد هذا التركيب في القرآن الكريم (خمساً وثلاثين) مرة فهو استفهام معطوف على ما سبق ذكره؛ فالواو للعطف وهي أصل حروف العطف؛ لكثرة استعمالها ودورها فيه، ومعناها الجمع والتشريك ، وهي تعطف مفرداً على مفرد وجملة على جملة، فاذا عطفت مفردًا على مفرد فإنها تشرك بينهما في اللفظ والمعنى، في اللفظ من حيث الاسمية والفعلية، والرفع والنصب والجر والجزم، فيتبع لثاني الأول في اسميته أو فعليته وفي كونه مرفوعة أو منصوباً أو مجرورً أو مجزوما وفي المعنى وهو الجمع بين الاثنين في نفي الفعل أو اثباته [٥] ، وذكر ابن الأنباري الهمزة للاستفهام وحرف النفي (لم) وقدمت همزة الاستفهام على حرف العطف؛ لأن همزة الاستفهام لها الصدارة في الكلام فهمزة الاستفهام دخلت على واو العطف ولا يدخل شيء من حروف

(١) ينظر: مقاييس اللغة : ابن فارس ، مادة (قرن) : ٥/ ٧٦ ، وينظر : مختار الصحاح : الرازي :١/ ٢٥٢.

(٢) ينظر : أساس البلاغة للزمخشري: ٢/ ٧٣

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ٣/ ٢٧١.

(٤) شرح الكوكب المنير: ٣/ ٢٥٩

(٥) ينظر: معجم حروف المعاني في القرآن الكريم : ١١٤٧

الاستفهام على شيء من حروف العطف إلا الهمزة ؛ لأنها الأصل في حروف الاستفهام ، ولا يجوز أن تدخل همزة الاستفهام على (أو) بين حروف لعطف[١] .

وذكر سيبويه أن المعنى الأصلي لـ(الواو) العاطفة هو الجمع المطلق[٢] ، وقال الجرجاني:((وأعلم أن سبيلنا أن ننظر إلى فائدة العطف في المفرد ثم نعود الى الجملة فنظر فيها ، ونتعرف حالها ومعلوم أن فائدة لعطف في المفرد أن يشرك الثاني في إعراب الأول، وأنه إذا أشركه بإعرابه فقد أشركه في حكم ذلك الإعراب، نحو: أن المعطوف على المرفوع بانه فاعل مثله والمعطوف على المنصوب بأنه مفعول به أو له في ذلك))[٣]

وبين الخليل فهي تعطف الشيء على مصاحبه وعلى سابقه وعلى لاحقه كقولنا: (جاء زيد وعمرو)، فالمجيء يحتمل أن يكون حصل من كليهما في زمان واحد، وأن يكون حصل من زيد أولاً، وأن يكون حصل من عمرو أولا فهذه احتمالات عقلية لا دليل في الواو على شيء منها، وقد صرح أغلب النحوين بدلالة (الواو) هذه باستثناء بعض الآراء الذاهبة الى إفادتها ترتيب الحدث بين المعطوف عليه والمعطوف[٤] .

وأوضح الدكتور فاضل صالح السامرائي الدلالة الدقيقة لهذا الحرف حين جعل الترتيب ممكنا ضمن دلالة الواو لكنه غير مقيس فيها بقوله:((ليس معنى قولنا أنها تفيد الترتيب أنها لا تأتي للترتيب البتة، بل قد تأتي للترتيب وتأتي لغير، فقد يصح أن يكون المعطوف بعد المعطوف عليه، كما يصح أن يكون قبله أو مصاحبا له))[٥].

وذكر الخطيب الاسكافي(ت ٤٢٠ هـ): أن الالف تدخل على واو العطف في الاستخبار والإنكار والتقريع على تقدير أن تكون الجملة التي فيها الواو معطوفة على كلام مثلها يقتضيها ذلك فكل موضع فيه بعد الف الإنكار (واو) ، فيه تبكيت على ما يسهل الطريق على ما بعد الواو، فالاعتبار به لكثرة امثاله كقوله تعالى: ((أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)) ، كان قائلاً قال: كذبوا الرسول وغفلوا عن التفكر والتدبر ولم ينظروا الى المشاهدات التي تنبه الفكر فيها من لغفلة ومثلها قوله تعالى ((أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرحمن))[سورة

(١) ينظر: البيان في غريب القرآن :١/ ٤٩١
(٢) ينظر : الكتاب: ١/ ٤٣٧
(٣) دلائل الإعجاز: ١/ ٦٤
(٤) ينظر: الجمل في النحو: ١٩٧
(٥) معاني النحو: ٣/ ٢١١

الملك: ١٩] ، كأنه قال: كذبوا ولم ينظروا الى ما يردع عن الغفلة من التفكير في المشاهدات[١]

وقد عقد سيبويه بابا لذلك عنونه بقوله: ((هذا باب الواو التي تدخل عليها الف الاستفهام))[٢] ، وعرف الوصل العلوي فقال :((عطف الجملة على الجملة والمفرد على مثله بجامع ما وهو قد يرد لرفع الابهام))[٣] ، فإنَّ بلاغة الوصل لا تتحقق إلا بالواو العاطفة، دون غيرها من بقية حروف العطف؛ لأن الواو هي الاداة التي تخفى الحاجة إليها ، ويحتاج العطف بها الى لطف في الفهم ودقة في الإدراك، إذ لا فيد إلا الربط والتشريك ما بعدها لما قبلها في الحكم، بخلاف العطف بغير الواو فيفيد مع تشريك معاني أخرى كالترتيب، و التعقيب في الفاء، وكالترتيب مع التراخي في (ثم) وهكذا باقي حروف العطف.

وردت الموضوعات القرآنية في سياق اقتران همزة الاستفهام بالنفي مع (لم) بخصيصة دخول حروف العطف عليها ومنها الواو ومنها في قوله تعالى :

فقد جاء لخطاب القرآني على لسان النبي إبراهيم (عليه السلام) ، وتمثل في أسلوب النداء ، ونوعه نداء الإيجاز، إذ حذف حرف النداء (يا) والتقدير (يا رب) فناسب هذا الحذف أسلوب الاستفهام في قوله تعالى: ((وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الموتى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بلى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)) [البقرة: ٢٦٠]، ذكر الطاهر ابن عاشور في قوله : (أرني) للالتماس والمعنى طلب إبراهيم (عليه السلام) ، من ربه أن يريه كيف يحيي لموتى مع إيمانه الجازم بالقدرة الربانية[٤]

وبَيَّنَ أبو السعود أن الرؤية هنا بصرية دخلت على الجملة الاستفهامية والغرض التعجب؛ لأنه استعظام أو تعجب عل قدرة الله على أن يحيي ويميت وابراهيم (عليه السلام)، ليس في صدره شكٌ في قدرة الله على إحياء الموتى ، وإنما أراد أن يرى ما يؤمن به غيبا رؤية ومشاهدة فسؤاله كان متوجها الى معاينة كيفية الإحياء ؛ لحصول العلم بالأحياء نفسه، فهو سؤال عن الحال والكيفية[٥]، وأشار الواحدي النيسابوري السبب في سؤال إبراهيم (عليه السلام) لربه (عزَّ وجلَّ) ، أن يريه إحياء الموتى فقيل:

(١) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل : ٢/ ٤٨٣
(٢) الكتاب: ١/ ٤٩١
(٣) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة : ٣/ ٣١٠
(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٣/ ٣٨
(٥) ينظر: إرشاد العقل السليم الى مزيا الكتاب الكريم: ٢٥٦/١.

إن ابـراهيم أتـى علـى دابـة ميتـة قـد توزعتهـا دواب البـر والبحـر[١]، وذكـر أبـو حيـان فقـال: لـه ربـه أولـم تصـدق بـأني أحيـي المـوتى؟ قـال قـد صـدقت ، ولكـن ليسـكن قلبـي لطمأنينـة[٢] ، وقـال السـمرقندي : بمعنـى خـذ أربعـة مـن الطيـر فقطعهـن وأخلـط بعضـهن بـبعض ثـم فـرقهن فـي أربعـة جبـال فعـل ذلـك ودعـاهن فسـعين علـى أرجلهـن (وأعلـم أن الله عزيز) في (ملكه) حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره[٣].

يـأتي اقتـران أسـلوب الاسـتفهام بـالنفي بـ(الهمزة) مـع العـاطف الـواوي فـي قولـه: (أولـم تـؤمن)، جـواب سـؤال النبـي إبـراهيم(عليـه السـلام) المترتـب علـى سـؤاله بأسـلوب الاسـتفهام أيضـاً ، وهـو تتنـاظر جميـل ، فهمـزة الاسـتفهام دخلـت علـى واو العطـف؛ فـذكر أبـو حيـان (ت٧٤٥: ه) إنهـا اسـتفهام معنـاه التقريـر، أي قـد آمنـت ، وذكـر ابـن عطيـة أي : إيمانـاً مطلقـا دخـل فيـه فعـل الاضـمار للفاعـل والـواو فـي (أولـم تـؤمن) ، واو حـال دخلـت عليهـا الـف التقريـر ويقـول ابـو حيـان كـون الـواو هنـا للحـال غيـر واضـح، لأنهـا إذا كانـت للحـال فـلا بـد أن تكـون فـي موضـع نصـب واذ ذاك فـلا بـد لهـا مـن عامـل فـالهمزة التـي للتقريـر دخلـت علـى هـذه الجملـة الحاليـة إنمـا دخلـت علـى الجملـة التـي اشـتملت علـى العامـل فيهـا وعلـى ذي الحـال ويصـير تقـدير أسـالت ولـم تـؤمن؟ اي أسـألت فـي هـذه الحـال؟ والـذي يظهـر أن التقريـر إنمـا هـو منسـحب علـى لجملـة المنفيـة وإن الـواو للعطـف ، وضَّـح الزمخشـري واعتنـي بهمـزة الاسـتفهام فقـدمت[٤]، ومـن وبلاغـة التعبيـر القرآنـي طريـق الجـواب بـ(بلى) ، دون (نعـم) ؛لأن النفـي إثبـات والتقـدير: بلـى آمنـت بخـلاف (نعـم) فهـي لإثبـات المنفـي؛ ليزيـد سـكوناً وطمأنينـة بمضـامة علـم الضـرورة علـى الاسـتدلال وتظـاهر الادلـة أسـكن للقلـوب[٥]، وذكـر الآلوسـي وأزيـد للبصـيرة واليقـين؛ ولأن علـم الاسـتدلال يجـوز معـه لتشـكيك بخـلاف العلـم الضـروري فـأراد بطمأنينـة القلـب العلـم الـذي لا مجـال فيـه للتشـكيك مـع الخليـل ، تمثلـت بأسـلوب الأمـر فخـذ أربعـة مـن الطيـر هـذه المرحلـة الاولـى، ثـم ضـمهن وأملهـن إليـك بضـبطها ومنعهـا عـن الخـروج الـى طلـب لـذاتها[٦] ، ثـم جـاء البيـان لقرآنـي للتمهيـد بـأن القـدرة علـى (الاحيـاء، والاماتـة) مختصـة بـالله (عـزَّ وجـلَّ) وحـده أي إحيـاء الميـت وبـث الـروح فيـه فقـال : ((ثُـمَّ اجْعَـلْ عَلَـى كُـلِّ جَبَـلٍ

(١) ينظر: أسباب النزول: ٨٥
(٢) البحر المحيط: ٢/ ٦٢٤
(٣) ينظر : بحر العلوم : ١/ ١٧٤
(٤) ينظر: البحر المحيط: ٢/ ٦٤٣
(٥) ينظر : الكشاف: ١/ ٣٣٧
(٦) ينظر : روح المعاني: ٣/٣

مِـنْهُنَّ جُـزْءًا ثُـمَّ ادْعُهُـنَّ يَأْتِينَـكَ سَـعْيًا)) ومـا عليـك إلا الـدعوة لأجـزاء، اللحـم لموزعـة علـى أطـراف الجبـل والتـي لا يتصـور منهـا حيـاة ولا حركـة، ومـن بـديع الـنظم فـي الإعجـاز البلاغـي جماليـة أسـلوب الأمـر بقولـه:((ثُـمَّ اجْعَـلْ عَلَـى كُـلِّ جَبَـلٍ مِـنْهُنَّ جُـزْءًا ثُـمَّ ادْعُهُـنَّ يَأْتِينَـكَ سَـعْيًا))،فقد ذكـر كـل جبـل ليـدل علـى أنـه أمـر بجعـل كـل جـزء مـن أجـزاء الطيـر علـى جبـل؛ لأن وضـعها علـى الجبـال أبلـغ فـي تفريـق تلـك الأجـزاء فإنهـا فرقـت بالفصـل مـن أجسـادها، وبوضـعها فـي أمكنـة متباعـدة وعسـرة التنـاول ، ثـم جـاء التعبيـر القرآنـي بقولـه: ((يَأْتِينَـكَ سَـعْيًا))، دون قولـه، طيرانـا أو طيـورا مـا قولـه: (سـعياً) فهـو أبلـغ فـي الإعجـاز والقـدرة الالهيـة التـي تـدل علـى أن الحيـاة دبـت فـي قطـع اللحـم للمنتشـرة علـى كـل جبـل والسـعي مـن أنـواع المشـي نـوع مـن أنـواع الطيـران، فجعـل ذلـك آيـة علـى أنهـن أعيـدت إلـيهن حيـاة مخالفـة للحيـاة السـابقة لـئلا يظـن أنهـن لـم يمـتن تمامـاً[1] ومـا ذلـك إلا لبيـان مـا سـألت وطلبـت، تقـديراً لقولـه تعـالى: ((وَاعْلَـمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيـزٌ حَكِـيمٌ))، فختمـت فاصـلة الآيـة الكريمـة بأسـلوب لخبـر المؤكـد وذلـك لتناسـب سـياق الاسـتفهام التركيبـي المنفـي بـ(لـم) وتزيـل سـؤال ابـراهيم (عليـه السـلام) منزلـة المنكـر بحسـب الظـاهر؛ ولأن بقـدرة الله علـى الإحيـاء سـأله مـع علمـه بإيمانـه بـذلك ليجيبـه بمـا سـأل فـيعلم السـامعون غرضه.

وورد اقتـران همـزة الاسـتفهام بـالنفي مـع العـاطف الـواوي فـي الحـديث عـن العقيـدة وذلـك فـي قولـه تعـالى: ((فَلَمَّـا جَـاءَهُمُ الْحَـقُّ مِـنْ عِنْـدِنَا قَـالُوا لَـوْلَا أُوتِـيَ مِثْـلَ مَـا أُوتِـيَ مُوسَـى أَوَلَـمْ يَكْفُـرُوا بِمَـا أُوتِـيَ مُوسَـى مِـنْ قَبْـلُ قَـالُوا سِـحْرَانِ تَظَـاهَرَا وَقَـالُوا إِنَّـا بِكُـلٍّ كَـافِرُونَ))[سـورة القصـص: ٢٤٨] ، فمـوطن الشـاهد البلاغـي قولـه تعـالى: ((أَوَلَـمْ يَكْفُـرُوا بِمَـا أُوتِـيَ مُوسَـى))، ذهـب بعـض العلمـاء إلـى أن الهمـزة للاسـتفهام الإنكـاري، والـواو عاطفـة علـى مقـدر يقتضـيه السـياق فيكـون المعنـى أن أهـل مكـة الـذين كفـروا بمحمـد(صـلى الله عليـه وسـلم)، وبـالقرآن الكـريم فقـد كفـروا بموسـى (عليـه السـلام) ، وبـالتوراة فمـن يعـارض اليـوم رسـالة السـماء ويقـدم عليهـا منـاهج الأرض بكـل مـا عتريهـا مـن نقـص لـه سـلف فـي اليهـود يـوم عارضـوا القـرآن الكـريم، وقـالوا أن التـوراة أهـدى والحقيقـة أنهـم اتبعـوا أهـواهم فـلا آمنـوا بـالقرآن علـى وجههـا ، ولا آمنـوا بـالتوراة حـق الايمـان لأوصـلتهم للإيمـان بـالقرآن ، ولكنـه الهـوى وعمـى البصـائر وإتبـاع الأهـواء، فمـا كـان مـنهم إلا افتـراء الشـبهات تلـو الشـبهات، وتصـديقها ومحاولـة الصـد عـن سـبيل الله[2] ، وبـين الطنطـاوي أن هـؤلاء

(١) ينظر : التحرير والتنوير: ٣/ ٤٠
(٢) ينظر : إعراب القران الكريم وبيانه: ٧/ ٣٤٨

المشركين لا يثمر فيهم رسالة ولا رسول، إذ ظل مشركو قريش أزماناً متطاولة دون أن يأتيهم رسول ينذرهم ويبشرهم فلما جاءهم الحق من عندنا متمثلا في رسولنا محمد ، وفيما ايدناه من معجزات دالة على صدقه وعلى رأسها القرآن الكريم ، قالوا على سبيل لتعنت والجحود هلا اوتى هذا الرسول مثل ما اوتي موسى من توراة أنزلت عليه جملة واحدة ومن معجزات حسية منها العصا واليد والطوفان والجراد(١)

وذكر الطاهر ابن عاشور جاء الرد عليهم من باب العناد والتعنت في سياق اقتران همزة الاستفهام بالنفي في قوله: "أولم تكفروا، لتقرير كفرهم وتأكيده ، وهذا من بليغ كفر قريش ثم بين الله أن محمد (صلى الله علي وسلم)، جاء بالحق من عنده مجيء الحق كناية عن الإسلام ، وإسناد المجيء إليه مجاز عقلي؛ للمبالغة في تحققه كانه الجائي بنفسه وحقيقة هذا المجاز، اتاهم رسولنا بالحق الذي بلغناه به وهو الاسلام فعبر عن بالحق لإدماج لثناء عليه في ضمن الكلام(٢)، وقال ابو حيان: ((الحق هو الرسول محمد(صلى الله عليه وسلم) جاء بالكتاب المعجز لذي قطع معاذيرهم وقيل: القرآن))(٣) .

ومن جمالية التعبير القرآني أن نرى تشبها في شخصية رسول الله في سورة القصص بينه وبين موسى (عليه السلام) في كونه رميا جميعا بالسحر، وذلك في قوله: (سحران تظاهرا) وهو عين ما رمت به قريش رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فالجملة واقعة تفصيل وبيان بعد إجمال وإبهام لان هذه الجملة فصلت كفرهم بما أوتي موسى، وكفرهم بما أوتي الرسول محمد ، وأوثر ذكر (قالوا) في الآية الكريمة، وكان يمكن لاكتفاء بالأولى مبالغة في التشنيع عليهم بتكرار إسناد القول إليهم وهذا من بلاغة النظم القرآني أسراره (٤).

إذ يطالعنا اقتران همزة الاستفهام بالنفي مع الفعل المضارع(يتفكروا) وذلك في قوله تعالى: ((أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)) [الأعراف: ١٨٤]، فالهمزة للإنكار والتعجيب التوبيخ والواو للعطف على مقدر يستدعيه في سياق النظم القرآني : أي كذبوا بها ولم يتفكروا في أي شيء من جنون ما كان بصاحبهم الذي هو أعظم الأمة(٥)؛ وسبب نزول الآية أن النبي (صلى الله عليه وسلم)، قام على

(١) ينظر: التفسير الوسيط للقران الكريم: ١٠/ ٤١٦
(٢) ينظر التحرير والتنوير: ٢٠/ ١٣٧
(٣) البحر المحيط: ٧/ ١٢٣
(٤) ينظر التفسير البلاغي للاستفهام في القران الحكيم: ٣/ ٢٠٠
(٥) ينظر: إرشاد العقل السليم : ٣/ ٢٩٨

الصفا فدعا قريشاً فجعل يدعوهم فخذاً فخذاً ، يا بني فلان يحذرهم بأس الله وقائعه ؛ فقال قائلهم إن صاحبكم بمجنون فأنزل الله {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} [الأعراف: ١٨٤][١] ، ومن مقتضيات اقتران همزة الاستفهام بالنفي الدعوة الى (التفكر والتدبر) في تنوع الاحداث بأسلوب يثير المتلقي ويحرك احساسه، ينبه الحق سبحانه وتعالى كل الخلق أن يتفكروا في أمر الرسول المبلغ الذي ينقل عن القوة العليا مرادها من الخلق وأول ما يستحق التفكير فيه أن نعرف هل هذا الانسان الذي يقول عنه رسول صادق أو غير صادق؟ ولقد ثبت صدق رسول الله (صلى الله عليه وسم) من قبل نزول الرسالة عليه وجاءت الرسالة لتأخذ بيد الخلق الى الإيمان بالله لكنهم لا يريدون أن يسمعوا، ليوجدوا لأنفسهم مبررات بالنكوص على المنهج فقال بعضيهم اتهاما للرسول: أنه مجنون مثلما قال بعضهم من قبل أنه ساحر وكاهن وقالو: شاعر ويرد ربنا على كل تلك الأقاويل وذلك في قوله تعالى: ((أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ))[الأعراف: ١٨٤] ، وجاءت صيغة (جنة) وهي مصدر هيئة وعدلت عن المصدر الصريح (جنون) فجمالية التعبير ظاهرة التنكير فجاءت كلمة (جنة) نكرة وكان القول: إن من يتفكر لن يجد في هيئه ما يقربه من الجنون؛ ولذلك جيء بمصدر الهيئة، الجنة: الجنون[٢]، وهو ((حائل بين النفس والعقل))[٣] وجنة إما أن تكون اسما للجنون ، وذكر ابن عاشور هو الخبال لذي يعتري الانسان من مسّ الجن إياه [٤] ، ويرى أبو حيان معنى الآية الكريمة أولم يتأملوا ويتدبروا ان وصف لجنون ينتفي عن الرسول ولا يمكن لمن أنعم عليه بالفكر ان ينسب إليه [٥] ، وبالنظر الى سياق الآية الكريمة نجد أن الله(عزَّ وجل) ، نفي الجنون عنه بأسلوب يمتلئ بالقوة والمؤكدات منها:

- أسلوب الاستفهام التوبيخي؛ وذلك للمبالغة في توبيخ الكفار.
- حرف الجر الزائد (من) فدخول (من) يوجب ألا يكون به أي نوع من انواع الجنون[٦].

(١) لباب النقول في أسباب النزول: ١/ ١٠٥
(٢) ينظر : الكشاف : ٢/ ١٧١
(٣) مفردات ألفاظ القران : ١/ ١٩٤
(٤) ينظر : التحرير والتنوير: ٩/ ١٩٤
(٥) ينظر: البحر المحيط: ٥/ ٢٣٤
(٦) ينظر مفاتيح الغيب: ١٥/ ٤٢٠

• أسلوب القصر في قوله: ((إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)) فالقصر لغة: "الحبس، قال الجرجاني :((يقال قصرت اللقحة على فرسي اذا جعلت لبنها له، لا لغيره))[١] ،ففي الآية أسلوب قصر موصوف على صفة أي قصر (صاحبهم) ، على صفة النذارة قصر قلب؛ لأنهم دعوه مجنوناً وهو أعقل العقلاء فرد الله عليهم زعمهم بالجنون واثبت له صفة النذارة وحدها ؛ لأن المنذر لا يكون مجنوناً، وهو قصر إضافي ؛ لأن لمحمد (صلى الله عليه وسم)، مئات الصفات غير النذارة وأريد بالنص إثبات النذارة نفي تهمة الجنون التي رموه بها وكأنهم يثأرون منه بسبب الانذار[٢].

وذكر الطاهر ابن عاشور أي : هو نذير مبين لا مجنون، كما يزعمون وفي هذا تسفيه لهم بأن حاله لا يلتبس بحال المجنون ، فكانت دعواهم عليه بالجنون إما غباوة منهم أو مكابرة وعناد وافتراء على الرسول (صلى الله عليه وسم)[٣]، فمهمة الأنبياء هي الإنذار. ولقد لفت القرآن العظيم الأنظار والعقول من أول يوم للرسالة إلى الدعوة لتأمل والتفكر في شأن لمخلوقات ، وهي دعوة عامة في كل ما خلق الله في السموات والأرض ، وما خلق فيهما في قوله إلى : ((أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ)) أشار أبو السعود أن من بلاغة اقتران همزة الاستفهام بالنفي في قوله تعالى: (أولم ينظروا) فالهمزة لما ذكر من الإنكار والتعجيب والتوبيخ، والواو للعطف على المقدر المذكور، أو على الجملة المنفية ، بلم والملكوت الملك لعظيم أي أكذبوا بها ولم ينظروا نظر تأمل فيما يدل عليه السموات والارض من عظم الملك وكمال لقدرة[٤]، وذكر الطاهر ابن عاشور فإذا نظروا إليها وجدوها أدلة دالة على توحيد ربها وعلى ماله من صفات الكمال، وكذلك لينظروا الى جميع ما خلق الله من شيء ؛ فإن جميع أجزاء العالم يدل أعظم دلالة على الله وقدرته وحكمته وسعة رحمته، وإحسانه، ونفوذ مشيئته وغير ذلك من صفاته العظيمة، الدالة على تفرده بالخلق والتدبير، الموجبة لأن يكون هو المعبود المحمود، المسبح الموحد المحبوب، فالنظر والرؤية لواقعة بعد القتران الاستفهام بالنفي بـ(ألم) مع العاطف الواوي مستعملة للانكشاف والمعرفة فالإرادة ، بمعنى الكشف والتعريف فتشمل المبصرات والمعقولات المستدل بجميعها على الحق وهي إراءة إلهام وتوفيق ، وبيَّنَ أن الفعل(نظرَ) عدي الى

(١) التعريفات : ٢٥٦
(٢) ينظر : التفسير البلاغي للاستفهام في القران الكريم: ١/ ٤٢٧
(٣) ينظر التحرير والتنوير: ٩/ ١٩٥
(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم : ٣/ ٢٩٩

متعلقه بحرف الظرفية (في)؛ لأن المراد التأمل بتدبر وهو التفكر فدل الحرف(في) على أن هذا التفكر عميق متغلغل في أصناف الموجودات [١].

وللمسة البلاغية التي تطالعنا في قوله: (أولم ينظروا) وهي استعارة تبعية ؛ لأن المراد من لنظر هنا التأمل في عجائب الكون الذي يُصر القلوب بالحقائق كما تكشف العين بالنظر ظواهر لموجودات المادية[٢] ومن دقائق الأسرار البلاغية في النظم الحكيم استعمال القرآن الكريم لفظة (الملكوت) ولم يقل الملك فكل زيادة في المبنى تؤدي الى زيادة المعنى، فلفظة (ملكوت) أوسع من الملك فعندما نأتي إلى قوله تعالى((أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ))، عطف الخلق العام ((وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ))، كله داخل في ملكوته فالعطف هنا هو عطف الخاص على العام ، فكل ما خلق هو داخل ضمن عموم كلمة الملكوت، والملك والملكوت كله لله سبحانه وتعالى: فالملك: هو المتصرف بالأمر والنهي، والملك ضربان: ملك هو التملك والتولي، والملك هو القوة على ذلك، الملك هو الحق الدائم لله من ذلك قوله: ((لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ))[٣]، وعبر بقوله (وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ)، بالنفي لتعم كل شيء [٤]، ونلحظ ظاهرة تعاقب أسلوب الاستفهام المثبت بعد النفي بـ(لم) في قوله: ((فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ))، دلالة هذا الاستفهام على الإنكار والتبكيت لهم أي: إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الجليل فبأي حديث يؤمنون به ؟ أ بكتب الكذب والضلال؟ أم بحديث كل مفتر دجال؟ ولكن الضال لا حيلة فيه ولا سبيل الى هدايته ومن هنا تولد الإنكار عن طريق الكناية اللطيفة [٥].

ومن اشكال التكرار التي جاءت في القرآن الكريم تكرار التراكيب وهذا ما نجده في قوله تعالى :((أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا)) [الروم: ٩]، فقد تكررت عبارة ((أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ))، ثلاث مواضع في القرآن الكريم وهذا التكرار التركيبي فيه ايقاع جدلي يكشف عن معنى الحث على لسير في الارض ، والنظر في سيرة الأولين ومسيرتهم وكيف نفذت فيهم سنن الله التي لا تختلف رغم ما كان لديهم من كثرة العدد وقوة العدد المهم أن يمروا

(١)ينظر: التحرير والتنوير : ٧/ ٣١٥
(٢)ينظر : التفسير البلاغي للاستفهام في القران الكريم: ١/ ٤٢٧
(٣) ينظر: مفردات ألفاظ القران :٣/ ٤١٨
(٤) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : ٣/ ١٦٣
(٥)ينظر : إرشاد العقل السليم : ٣/ ٢٩٩

على آثار القوم وما خلفوه وراءهم بعقول فكر، لا بمجرد أعين تبصر، فبعد أن ذكر جل في علاه الأدلة المحسوسة والمشاهدة من خلق الله للأنفس وخلق السموات والأرض دل على وجود الله وتفرده بالخلق، فلما أمر الله (سبحانه وتعالى) التفكر في خلق أنفسهم وخلق السموات والأرض، والفكر يحتاج الى إعمال العقل فهو يعتمد على لحدس الفكري كانت النتيجة أنهم كفروا بالله وباليوم الآخر، فأعقبه الله (عزَّ وجلَّ) بدليل أسهل وأبسط وهو النظر في آثار الامم السابقة فهو لا يحتاج الى فكر واعمال للعقل بل يعتمد على الحدس لنظري، حيث كانت هذه الأمم أشد قوة من الناحية الجسمية واكثر تعمير للأرض تعمير من الناحية لمعمارية فما كان منهم إلا ان كذبوا رسلهم فكانت عاقبتهم الهلاك في الدنيا والآخرة فكان ذلك عدلاً منه (سبحانه وتعالى)، بسبب ظلمهم لأنفسهم، من بديع النظم القرآني في هذا الخطاب اقتران همزة الاستفهام بالنفي بـ(ألم) مع العاطف لواوي في مطلع الآيات المتمثل في قوله تعالى:((أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ))، إذ استفهم بالحرف(الهمزة) أعبه اسلوب الاستفهام المثبت المتمثل في قوله:((كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ))، ذكر الامام الزمخشري الحديث عن هذا الاستفهام فقال: أولم يسيروا تقرير لسيرهم في لبلاد ونظرهم الى آثار المدمرين من عاد وثمود وغيرها من الأمم العاتية[١] ، فهنا الواو أفادت مطلق الجمع؛ لأن واو العطف يشرك المعطوف مع المعطوف عليه في الإعراب والمعنى في سورة الروم رافق ما قبلها مع بعدها فان قبلها: (أولم يتفكروا)، للتقرير وما بعدها (أولم يسيرو) للتقرير أصالة، ويردف عليها التوبيخ والإلزام فهو توبيخ لهم بعدم اتعاظهم بمشاهدة احوال امثالهم لدالة على عاقبتهم ومالهم والهمزة لتقرير المنفي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام[٢]، والمراد بالسير المضي في الارض[٣] ، أي الانتقال من مكان اقامتهم للاعتبار والنظر ففي النظر استعارة تصريحية للتفكر والتأمل وسرها الوقوف على ماحل بالأمم العاتية من عقاب الله تعالي حتى كأنهم ينظرون الى مصارعهم وهي تقع أمامهم نظر العين، أي: تعميق الفكر والتأمل فيما حل بهم؛ ليكون ذلك حافزاً لهم على الإيمان والصلاح [٤].

وللفاء (فلينظروا) أفادت تعقيب النظر على السير، اللمسة البيانية في قوله: ((كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً))، استعارة لقوة حركتهم في الأرض وكثرة عملهم ، وفيها سعياً وراء منافعها

(١) ينظر : الكشاف: ٣/ ٤٦٩
(٢)ينظر : إرشاد العقل السليم : ٧/ ٥٢
(٣) ينظر: مفردات القران الكريم : ٢/ ٦
(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٥٧/٢١

استعمارها فوقعت الجملة بيان كيف كان عاقبة الذين من قبلهم[١] ، ويقول الإمام الرازي في قوله تعالى: ((فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ))، يعني لم يظلمهم بالتكليف فإن التكليف شريف لا يؤثر له إلا محل شريف، ولكن هم ظلموا أنفسهم بوضعها موضع خسيس وهو عبادة الاصنام واتباع ابليس[٢] . ونلحظ تقديم لفظة (أنفسهم) على (يظلمون) للتشنيع عليهم؛ لأن ظلم الانسان نفسه من أقبح أنواع الظلم و(كان وكانوا) طباق السلب بلفظين من نوع واحد وهذا من بديع النظم القرآني وأسراره التعبيرية .

ومما جاء في سياق اقتران همزة الاستفهام بالنفي مع (لم) بخصيصة دخول (الواو) تركيب (أولم يروا) فقط كثرة أمثله للاعتبار به قوله تعالى:((أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ))[الشعراء: ٧]، وقوله تعالى :((أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))[الأحقاف : ٣٣] ، وقوله تعالى :((أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ))[الملك:١٩] ، وغيرها من الآيات القرانية الواردة في هذا التركيب فقد نبَّه الله تعالى بقوله :((أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ))، على عظمته وقدرته وأنَّه لو رأوا بقلوبهم ونظروا ببصائرهم، لعلموا أن الله هو لذي يستحق أن يعبد، إذ هو القادر على كل شيء ولذا جاء اقتران همزة الاستفهام بالنفي أولم)؛ ليبين إعراض المشركين عن الآيات التي تتحدث عن الكون الدالة على وحدانية الله تعالى، والهمزة للإنكار التوبيخي، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي: أصروا على ما هم عليه من الكفر بالله تعالى وتكذيب ما يدعوهم الى الإيمان به (عزَّ وجلَّ)، ولم ينظروا الى عجائب الأرض الزاجرة لهم عن ذلك والداعية الى الإيمان به تعالي[٣] ، والمقصود من الاستفهام المنفي بـ(لم) إقامة الحجة عليهم بأنهم لا تغني فيهم الآيات؛ لأن لمكابرة تصرفهم عن التأمل في الآيات والاستفهام إنكار على عدم رؤيتهم ذلك؛ لأن دلالة الانبات على الصانع الواحد دلالة بينة لكل من يراه، فلما لم ينتفعوا بتلك الرؤية نزلت رؤيتهم منزلة العدم فأنكر عليهم ذلك[٤] ، وقد لفت الآية الانظار الى ذكر (الأرض) اولاً ثم كثرة ما أنبت فيها من نبات؛ لتنبيه الى أنّ النبات يكاد يعم جميع الارض ولعلّ الجمع بين كلمتي (كم) و (كل) في الآية خير مثال على ذلك فقد دل (كل) على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل و(كم) على أن

(١)ينظر : التفسير البلاغي للاستفهام في القران الكريم: ١/ ٤٢٧
(٢)مفاتيح الغيب: ٢٥/ ٨٣
(٣) ينظر روح المعاني: ١٠/ ٦٢
(٤) ينظر: التحرير والتنوير : ١٩/ ١٠٠

هذا لمحيط متكاثر مفرط الكثرة فجمع بين الكثرة والاحاطة[١] ونجد حرف الجر (مِنْ) في قوله: ((مِنْ كلِّ روجٍ كريمٍ))، أفاد التبعيض وكلمة زوج تدل على الإناث والذكور من كل نوع من النبات ليتم التلقيح بينهما، بمعنى كثير نافع وللتنبيه على أنه تعالى ما أنبت شيئا إلا وفيه حكمة وفائدة فهذه الآية تعريض بمكذبي الرسل وفرط غباوتهم بجحدهم النعم، وكفرهم بالآيات البينات[٢] .

وجاء الاستفهام الانكاري المقترن بالنفي بـ(لم) مع العاطف الواوي في قوله تعالى: ((أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))[الأحقاف : ٣٣] ، للرد على منكري البعث الذين انكروا قدر الله سبحانه على إعادة الحياة للموتى، وهذا الأمر أيسر عليه سبحانه من خلقه لأول مرة ، وقد ورد في مطلع الآية الكريمة قوله: (أولم يروا) فالهمزة للأنكار، والواو عطف على مقدر يستدعيه المقام، والرؤية قلبية، أي: ألم يتفكروا ولم يعلموا (أن الله خلق السماوات والارض) وفي قوله: (ولم يعي بخلقهن) أي: لم يتعب ولم يعجز عن خلقهن، ولم يتحير فيه[٣] وأعقبه الأسلوب الخبري المؤكد بـ(إن) الاسمية الدالة على الثبات في وله: ((أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ)) ؛ لأهمية مضمونها وجاء حرف الجر (الباء) في قوله: بقادر لتوثيق الصلة بين المسند والمسند إليه .

ومن بلاغة النظم في الآية قوله تعالي: (ولم يعيَ بخلقهن) فالآية واقعة موقع احتراس وتمدح احتراس لدفع ما يتوهم ثبوته، من الله أصابه جهد واعباء من جراء خلقه السماوات والارض وتمدح بكمال قدرة الله - عز وجل وهذا من صور الإدماج البديع [٤] ، ومن مسوغات اقتران همزة الاستفهام بالنفي في الآية الكريمة إيثار المصدر الصريح في قوله: (أن يحيي الموتى) للدلالة على الزمن المستقبل كما نجد حرف الجواب (بلى) الواقع جوابا للاستفهام المنفي بـ(ألم) لبيان قدرة الله تعالى على البعث أي: بلى قادر والنفي المجاب هذا هو إنكارهم البعث وختمت الآية الكريمة بقوله: (إنَّهُ على كلِّ شيءٍ قديرٍ) ، فوقعت موقع التذييل لإتمام لكلام و توكيد المعنى على عظمة الله وقدرته وتنبيه الفكر من الغلة لحصول التذكرة والعبرة أي هي تذكير لمن أراد التذكر فإن كان من منكري البعث آمن وإن كان مؤمناً استفاق وبهذا تكون الجملة ذيلاً[٥]

(١) ينظر التفسير المنير : ١٩/ ١٢٤
(٢) ينظر ارشاد العقل السليم : ٦/ ٢٣٥
(٣) ينظر: روح المعاني: ١٣/ ١٩٠
(٤) ينظر التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن :٤/ ١٠٥
(٥)ينظر: التحرير والتنوير: ٢٦/ ٥٦

وجاءت الآية الكريمة: ((أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرحمن إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ))، في سياق اقتران همزة الاستفهام بالنفي الإنكاري فالألف التي تدخل على واو لعطف للاستخبار والإنكار والتقريع على تقدير أن تكون الجملة التي فيها الواو معطوفة على كلام مثلها كأنه قال: كذبوا ولم ينظروا الى ما يروع عن الغفلة من التفكير في المشاهدات[١]، تدل الآية لكريمة على كمال قدرة الله تعالى وبديع صنعه وحكمته في خلق المخلوقات فإنه سبحانه خلق الطير وزوده بالآت تمكنه من الطيران فجعل له جناحين يبسطهما ويقبضهما ، فانكر الله تعالى عليهم عدم لانتفاع من رؤية الطير على هذه لحالة العجيبة فلم يهتدوا بها الى ألوهيته تعالى فهو الذي حفظها من السقوط بما جعل فيها من الخصائص التي تمكنها من الطيران دون سقوطها؛ لذلك أنزلهم الله منزلة من لم يرَ هذه الاحوال فقال: (أولم يروا) [٢] فسلك في هذه الآية الكرمة مسلك الإطناب لمراد به عند البلاغيين فقال العلوي ((تأدية المقصود من الكلام بأكثر من عبارة متعارف عليها))[٣].

وذلك بزيادة ذكر أوصاف ثلاثة:

١. الوصف الأول: ما أفاده قوله (فوقهم) فإن جميع الدواب تمشي على الارض والطير ؛ كذلك فإذا طار الطائر انتقل الى حالة عجيبة مخالفة لبقية المخلوقات وهي السير في الجو بواسطة تحريك جناحيه وذلك سر قوله تعالى: (يطير بجناحيهم) ؛ لقصد تصوير تلك الحالة.

٢. الوصف الثاني: (صافات) هو وصف بوزن اسم الفاعل مشتق من الصف يدل على الدوام والثبات؛ لأن أصل الحركة في الطيران حلق الجناح (التحليق) وهي تدل على سكون الاجنح وعدم حركتها فلا يكون الطيران بفعل الطير ذاته بل بفعل التيارات الهوائية التي تحمله.

٣. الوصف الثالث: (يقبضن) وهو عطف على صافات من عطف الفعل على الاسم الشبيه بالفعل في الاشتقاق، وإفادة الاتصاف بحدوث المصدر في فاعله فلم يفت بعطفه تماثل المعطوفين في الاسمية الفعلية الذي هو من محسنات الوصل ، أوثر المضارع في قوله (يقبضن) ولم يقل: قابضات فالقبض "ضد البسط والمراد به هنا ضد لصف المذكور قبله [٤]، وذكر الزمخشري أنَّ الفعل المضارع (يقبضن) دال على الحركة

(١)ينظر التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن :٤/ ١٠٥
(٢) ينظر: البحر المحيط : ٨/ ٢٩٥
(٣) الطراز : ٣/ ٣١٨
(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٩/ ٣٨-٣٩

والتجدد فـ(صافات) جاءت بالصيغة الثابتة للاسم (ويقبض) جاءت بالصيغة المتجددة ؛ فناسب بين الحالة والصيغة[١]، والمقصود من هذا التصوير التنبيه ولفت النظر على قدرة الله تعالى، كما أن هذا المنظر العجيب الذي رسمه لقرآن الكريم يؤكد على التفكر والتدبر ودراسة الأشياء بتبصر، ونلحظ في قوله:((مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحمنُ))، أسلوب القصر فقصرت حالة الطير وإمساكها على الله؛ لأنه هو الذي وهبها هذه الخواص وختمت بقوله: ((إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ))، فوقعت موقع تذييل مقرر لمعنى ما قبله وأوثر (بصير) على عليم لغرضين بلاغيين:

١. الأول: لمناسبة الرؤية البصرية المستفهم منها.

٢. الثاني: لتوافق فواصل الآيات في بنائها على حرف الراء بعد حرف المد (الياء)[٢]، وهذا من بلاغة النظم القرآني .

و من شواهد اقتران همزة الاستفهام بالنفي ب(لم) مع العاطف الواوي الواردة في سياق المحاججة والدعوة قوله تعالى:((وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى))[طه: ١٣٣] ، هذه الآية الكريمة حكاية عن الكافرين في خطاب النبي (صلى الله عليه وسلم) ، حيث أنهم اقترحوا في التعنت آية على لنبوة كالعصا واليد من آيات موسى عليه السلام ، وكناقة صالح عليه السلام واقتراحهم ؛ لذلك بحرف التحضيض الدال على شدة الحض في طلب وذلك في قوله: (لوا أتينا) أي: هلا يأتينا محمد بآية كناقة صالح، وعصا موسى، أي: نطلب ذلك منه بحض وحث [٣]، حيث توصل بالتمني الى هذا الحض؛ لأن التمني هو بداية الرغبة حتى أنه يتعلق بالمحال فناسب التحضيض[٤]، و(لولا) من حروف التمني في البلاغة، وقد دخل في الآية الكريمة على الفعل المضارع فكان معناه لتحضيض الذي فيه معنى الحث على الفعل (يأتينا) فالكافرون هنا يتمنون أن يحضر الرسول (صلى الله عليه وسلم)، آية تدل على صدق ما جاء به من الرسالة، متغافلين ما أنزل عليهم من معجزة عظيمة التي هي لقرآن الكريم وفي التعبير بقولهم: (ربه) ولم يقولوا (ربنا) أو (الرب) عامة؛ حتى لا يعترفوا بربوبية الله سبحانه وتعالى، فكان الجواب الحاسم بالإيجاز وبقوة البرهان بقوله:((أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى))، فحينما توالى الحاح المشركين على النبي (صلى الله عليه وسلم) بالإتيان بمعجزة متجاهلين هذا الإعجاز لعظيم من الذكر

(١) ينظر: الكشاف: ٤/ ٥٨٤
(٢)ينظر التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن :٢/ ٢٧٩
(٣) ينظر: أضواء البيان : ٤/ ١٣٠
(٤) ينظر: مواهب الفتاح: ٢/ ٢٤٤

الحكيم المنزل من رب العالمين وذلك في قوله تعالى: ((وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ)) ؛ فناسب مجيء أسلوب الاستفهام المنفي بالهمزة لإظهار الاستنكار بعدم اعترافهم بإعجاز لقرآن الكريم وهو بين اسماعهم وأبصارهم .

وموطن الشاهد البلاغي قوله: (أولم تأتهم) حيث جاءت "لهمزة إنكار الوقوع ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام، كأنه قيل (ألم تأتهم سائر الآيات ولم تأتهم خاصة بينة ما في الصحف لأولى، تقريراً لإتيانه وإيذاناً بأنه من الوضوح بحيث لا يتأتى منهم إنكاره أصلا، وإن اجرؤوا على إنكار سائر الآيات مكابرة وعنادا[١] ، وعبر باقتران همزة الاستفهام بالنفي (الانكارية) في الآية لكريمة ؛ لبيان أنهم لم يعتبروا ويعدوا شيئا من هذه البينة التي أنزلت عليهم مكابرة وضلالاً منهم[٢]. كما يحمل اقتران الاستفهام بالنفي بالهمزة مع العاطف الواوي معنى آخر هو التقرير بإتيان الآيات والتذكير والتشهير بضلالهم عليهم ليهتدوا ويتعظوا مما جاء في هذا القرآن الكريم من آيات، كما أن الاستفهام المنفي يحمل معنى التعجب من طلبهم للمعجزة، وإعجاز القرآن الكريم بين أيديهم فعبر النظم القرآني بالفعل المضارع (تأتهم للدلالة على الاستمرار وأنه صالح لكل زمان كما اعبر عن هذا القرآن العظيم بأنه بينة ما في الصحف الاولى لأن القرآن برهان قاطع على صحة جميع لكتب المنزلة من الله تعالي، فهو بينة واضحة على صدقها وصحتها[٣].

الخاتمة :

١. همزة الاستفهام من أكثر الأدوات استعمالا في القرآن الكريم فهي تقترن مع الاثبات والنفي .

٢. إن همزة الاستفهام ترد مع الاستفهام التصور والتصديق ، ومع النفي دائما للتصديق .

٣. همزة الاستفهام تسبق حروف العطف بخلاف فهي أوسع من غيرها ، أما (هل) فهي لا تدخل على النفي ، وحروف العطف تسبقها .

٤. الاستفهام الذي يدخل على النفي يخرج عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي بليغ.

(١) ينظر: ارشاد العقل السليم : ٦/ ٥١
(٢) ينظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٥/ ٦٠
(٣) ينظر: أضواء البيان : ٤/ ١٣٠

٥. دخلت الهمزة على أداة النفي (لم) مع اقترانه بحرف العطف (الواو) خمس وثلاثين مرة في القرآن الكريم، ودخلت الهمزة على أداة النفي(ليس) ومقترنة ب(الواو) في موضعين فقط في القرآن الكريم .